الإسم الثلاثي: أسما جهاد عوكل

الجامعة: الجامعة اللبنانية الأمريكية

العنوان: عبق حديقة الذكريات

"أخيرًا بدأ آذار لنتلقي. ها قد عاد ربيعي ليملأ الأرجاء شغفًا ويبشّرني بعودة الحياة لمكان نبض روحي الذي جمده الشتاء: إلى الحديقة. أهجرها قرابة الثلاث أشهرٍ كل سنة ولكن هي أبت أن تهجر داخلي طوال السبعة والخمسين عاما الماضية." هكذا بدأت الجدة قصتها لتروي لأحفادها الجاسلين أمامها على العشب الأخضر حكايتها مع هذا المكان المميز الذي تصطحبهم إليه اليوم كما كل سبتٍ بالأسبوع ليمضوا وقتا جميلا باللعب واللهو والمذاكرة وليتسنى لها هي الغرق في ذكريات الماضي.

تدق الساعة السادسة صباحًا حَسَبَ التوقيت المحلي لمدينة بيروت. أسارع النهوض من فراشي وتحضير نفسي للخروج. أرتدي حذائي الرياضي وأسابق الرياح حتى لا أتأخر عن رؤية مشاهدي المفضلة. تراقبني أمي، رحمها الله، بحرصٍ وأنا أتنقل بين الأزقة كالنحلة و أتمايل بتمايلها بين الورود بخفة ونشاط وأناقة. تتعجب أمي من همّة صغيرتها ولكن ما لا تعرفه أني اشتقت لحضن أمي الكبرى التي حينما أرتمي بين أحضانها تقيني أشعة العالم كله. كأمي الأولى تتحملني وتعتني بي منذ صغري ولا تأنس روحي إلا بمجالسة تجمعني بها.

كانت الحديقة مكانًا يعج بالحياة والجمال. تمتد على مساحة واسعة محاطة بأسوار عتيقة من الحجارة، تتخللها أقواس مزخرفة مزينةٌ بألوان الزهور المتنوعة. على مدخلها الرئيسي، ترحب الأقحوانات بكل زائر يعبر عتباتها، كما لو أنها تحمل قصصًا جديدة لترويها.

أيام الربيع تبدو دوما وكأنّها عيدٌ لمدللتي. لا لا، ليس عيداً فقط، بل هي أكثر بكثير، فالحديقة في أيامها تلك طفلةٌ وُلِدَت من جديد! أشجارها تنفض بياض الثّلج النّاصع عن أغصانها و ترتدي مكانها ثوبا أخضر تزينه براعم صغيرة هي براعم الرّبيع. الحديقة في حُلّةٍ جديدة وكأنها تستعد لحفلة زفافها ولكن بفستان ملون لتثبت أن في اختلافها رقي، فلا مكان مثيل لها. كلّها، بجميع عناصرها، فرحة باستقبال الغريب العائد الذي طال انتظاره.

كنت أنام وأستيقظ تحت فيات أشجار الحديقة على وقع أناشيد العصافير الشّجيّة وحفيف الأوراق فيخيل لي كأنهما يعملان معا في فِرْقَة موسيقية واحدة. أفتح عيناي العسليتان الصغيرتان لأرى أن شمس الحياة سطعت فوقنا منذ ساعات الصّباح الأولى لتنشر أشعتها فوق الطرقات والأعشاب، وترطّب بذلك الندى المنتشر من ليلة أمسِ.

كنت أمضي طفولتي هنا. أركض صباحا وأذاكر دروسي ظهرا لحين قدوم أمي التي كانت تجالسني فنلهو معا وتسرقنا الحديقة من بين جدران منزلنا الأربعة فلا نعود إلا مع غروب الشمس. كنت أعيش التفاصيل ذاتها حتى بعد وفاة أمي. كنت آتي وأجلس هنا لأستذكر ضحكاتنا التي مازال يرنّ صداها في الأرجاء.

الحال ذاته كان لحين قدوم ذلك اليوم. كان التاريخ يصادف الخامس والعشرين من آذار من عام 1974. لازمت أتذكر ذلك اليوم مثل البارحة. كنتُ صبية فاتنة الجمال أنافس محبوبتي طلتها. لجأت إليها ذلك اليوم بعد الظهيرة للتنويه عن نفسي ولمليء وقت فراغي كما كنت أفعل طوال أعوامي. انضممت إلى بيتي الثاني, إلى هذه الحديقة الجميلة التي لطالما احتضنتني.

جلستُ على هذا المقعد الخشبي تحديدا فهو قد حفظ وطأت قدامي حين قدومي وأنا أستطيع من مكاني هذا الاستمتاع بمشهد المياه الجارية. خريرها يطرب سمعي فيساعدني على الاسترخاء. ألقيت بجسدي النحيل وأمضيت وقتي أسرّح نظري وأتأمل بتأني التفاصيل الذي أبدع الخالق بتكوينها. يخيل لي أنها لوحة رسمت بريشة فنان بالفطرة. الأشجار الكثيفة كانت تحيط بالمكان، والورود كانت ما زالت كجنينٍ صغير لم يكتمل نموه بعد. المقاعد الخشبية موزعة هنا وهناك. في الباحة أخذ الأطفال يركضون كالعادة كما كنت أفعل أنا في صغري. في الجانب الأيمن تجلس أسرةٌ مكونةٌ من خمسة أفراد يأكلون ما يحملون في صررهم من فواكه وحلويات. كان يجلس من الجهة الأخرى مجموعة أصدقاء. كنا ندعوهم بالرباعي المشاغب فجميع أبناء الحي يعرفهم منذ نمو أظافرهم أنهم يحبون إحاكة المقالب دون توقف مع الحفاظ على حس الفكاهة والمزاح. هناك ثلاثة عدائين يركضون، وعاشقان يجلسان على المقعد الخشبي المقابل لي. فتاة صغيرة تركب الدراجة بمساعدة والدها وهناك صبيان يلحقان بها. الأصوات تعلو والضحكات تصدح فلا أرى إلا الجمال، ولا أسمع سوى الفرح يفوح بالأرجاء. أخذتُ أراقب صفاء السّماء فأراها اليوم قد أصبحتِ أكثر صفاء، أكثر نقاء، وسحراً من الأمس ...

غضضتُ نظري لثواني عن المناظر الخلابة تلك، إذ بي أرى نفسي أغرق من جديد داخل دائرة جمالٍ آخر. جمالٌ جعل قلبي يرنم وعيناي تنشدان. هناك عازف كمان يجلس قرب النافورة. يا لي صوته العذب الذي يندمج وألحان الحديقة الرنانة. صوت أغانيه تجذب الزهور التي تتمايل مع وقع نغماته. يا لهنّ من راقصات محترفات يموجن يمينا وشمالا. كل التفاصيل تُذهب العقل وتأسر القلب فلا يتسنى لي على مدى الأعوام إلا أن أذوب كل يوم أكثر عشقا بالمكان.

سرحت في ذلك العالم ما بين الغناء والصفاء، عالم الروحانية، وإذ بي أتململ ذعرًا كمن لسعت به أفعى. أحدٌ ما أيقذني من الخلف! أسئلةٌ كثيرةٌ راودت تفكيري قبل أن أستطيع استجماع كامل قوّتي لألتفت ورائي...

رؤيته هبّت كالصاعقة فوق رأسي. لم أعرفه ولكنّه شدني. أسئلةٌ طرقت مخيّلتي كالطبول حين واجهت عيناي عيناه للمرّة الأولى، ولكن لم يكن بمقدرتي أن أعير كلّ تلك الأسئلة أيّة اهتمام إلّا بعد أن عُدت إلى البيتِ وجلستُ وحدي أفكر. برؤيته شعرْت وكأننا نستعدُ لخوض معركة كاسرة كتلك التي تخوضها الحديقة مع الشتاء. هي معركة الصمود والثبات وعدم الانصياع للقلب والعواطف، لمشاعر أنا لم أختبرها قبل ولم أحس بها سابقاً. شعرتُ حقاً أنّني وسط عاصفةٍ صاعقةٍ! عاصفة لم أشهدها طوال الشّتاء أو حتى في حياتي. الشّتاء، ويعقل أن يكون قد عاد ليعكر صوف الربيع العائد ولكنْ هذه المرّة لي وحدي لأشهده بحُلّة جديدة وطريقة مختلفة؟

عندما نظرتُ إليه، هبت العاصفة الأولى. بدا الاحمرار على وجهي والخجل في عيني. بدوت كحبة الرمان الناضجة التي تلفحها أشعة الشمس. نبضاتُ قلبي بدأت تتزايد وتتسارع كدقات قلوب العدائين الذين كنت أراقبهم. كان التّوتر

والخوف يغلبان عليّ كما تقتحم الدودة تفاح الأشجار، ولكني لم أعرف سببهما حتّى الآن. خوفي منه على نفسي أم خوفي من ردّة فعلي إزاءه؟ كل ما أعرفه أنني شعرْت حينها كأني مفقودة داخل ذاتي ولا أعرف الخلاص ولا إنقاذ نفسي.

عاصفةٌ ظننتها مرّت بسلام وذلك بعد مرور دقائقٍ على حالةٍ بدت غريبة لنا نحن الإثنين، ولكنْ لا، أيضاً هذا التّوقّع قد خاب! إنّ العاصفة حملت وراءها عاصفةً أقوى وأشدّ صعوبةً. قبل أن أهمّ بالرّحيل لترك مقعدي المتواضع في المكان الّذي يسرني والشّاب الّذي يشغلني، إذ بي لا أرى نفسي سوى أنازع الأرض لكي أقف على قدمي. إنّي تعثرت وهويتُ أرضاً كعصفورٍ يسقط من أعلى الشجرة، وها هو كان قد شدّ على يدي لينتزعني! مسكها بقوة ولكن بدفء. قربّها من صدره لجهة القلب ونشلني عن الأرض، وما إن وقفت لم أمهل نفسي دقيقة لأرتاح أو أشكره بل سارعت راكضةً تاركةً ذلك الغريب المألوف خلفي.

عيناي بدتا وكأنّهما تشعّان بالشّرار وقلبي كان يرتجف كرجفة الأوراق مع ظهور أول رياح الخريف. ما أجمله شعورا وما أصعبه في آن. إنه ضعف وقوة، انتصار وهزيمة، خيال وواقع.

ليت أمي كانت معي يومها كأيام صغري لأخبرها بحالي. أبعثتني لنور الحياة وغاب نورها عني أيام صباي. ذكراها صورة مخبأةٌ بعلبة أسراري تحت سريري إلى اليسار من وسادتي وهنا في الحديقة فلطالما تشاركنا أوقاتنا معًا .

ما إنْ وصلْتُ إلى المنزل حتى سارعْتُ إلى غرفتي وأغلقْتُ خلفي البابَ بقوةٍ. أويْت إلى فراشي باكراً. كان بارداً ومصقعاً. حاولت النّوم ولكنّي عجزْتُ فلم أستطع أن أغفو ولو لثانيةٍ. كان ذلك الشّاب يشغل تفكيري طوال اللّيل. أخذ مشهدُ لقاءنا يدور ويدور برأسي آلاف المرّات حتى بدأتُ أحفظه. ظننْتُ للحظاتٍ أنّه شريط ملصقٌ ولا أستطيع انتزاعه. لحظات إمساكه بيدي كانت تتكرر فكنْتُ أشعرُ بها وكأنّها تحصل معي الآن من جديد في كل ثانيةٍ أفكر بها بما جرى بيننا خلال اللقاء الأول. لم أنم طوال اللّيل، وتمنيْتُ لو أستطيع التقاء ذلك الآسر من جديد، ولكنْ لا أدري لماذا قد أفعل ذلك. هو ترك بداخلي حيرةً لا أعرف الجواب لها وفرحةً وسعادةً لا سبب لهما.

في اليوم التّالي، عاودتُ زيارة الحديقة التي كُنتُ بها ليلة أمسِ، ولكن هذه المرّة ليس للغاية التي كنت آتي لها دوما إنما أملًا برؤية عينتيه الواسعتين والملونتين وبسمته المشرقة العريضة من جديد، وبتسريح نظري بسحر ذاك الشاب ذا الجسد الصلب والبنية القويّة.

وأخيراً، أصبح كل ما أريده يحصل فلم يمر أكثر من نصف ساعة على جلوسي في مكاني المعتاد حتى رأيته يتجول في الباحة الواسعة ويشارك الأطفال ألعابهم. حان الوقت... استجمعت كل قواي وابتدأت الاقتراب منه، وإذ به بالوقت نفسه يقترب منّي. خطوةٌ تلو الأخرى، وإذ بنا نقترب كثيراً من نقطة الصفر، نقطة الالتقاء. ها قد وصلنا إلى النقطة المحددة التي تجمعنا. ابتدأ الكلام بيننا بكلمات التّرحيب والتّعارف. لا أذكر تماماً فحوى الحديث الذي دار بيننا ذلك اليوم، ولكن كل ما أعرفه أنّه طلب رؤيتي من جديد ولو لدقائقٍ معدودات، ولو أستطيع كلّ يوم. مازال صوته يرن بأذني وهو ينطق العبارة:" جواد يريد رؤيتك، أتأذنين له؟."

في تلك اللحظات، شعرْت وكأنّي ولدْت من جديد في باطن الحديقة. أنا بداخلي أطلب منه أن يكون بقربي كلّ الوقت. حاولْت إخفاء سعادتي قدر المستطاع، وبشدةٍ استطعت تمالك نفسي وبداخلي قلبٌ ينبض بالحبّ لأول مرة، وشرايينٌ تتراقص وترتعش وكأنّها عادت لتدْفُق الدّم من جديد بعد سنين عمرٍ طويلة، أو وكأنها تختبر استعمالاً جديداً لها لم تكتشفه من قبل. أحسست بأنّه شيء عميقٌ يجمعنا وكأنّي كُنتُ أعرفه من قبل.

وجودي بقربه كان راحةً بنسبة لي وهناءً بالنسبة له. اعتدت أن أراه كلّ يومٍ، وأن أسرّح نظري داخل عينيه لأرى ما يجول بخاطره وما يحلم به قلبه. نحن لم نعد شخصين كما كنا سابقاً قبل لقائنا. نحن أصبحنا اليوم حياةً واحدة ولكن منقسمةً بجسدين. أصبحنا متشابكان ببعضنا كما تتماسك وتتعانق جذور الأشجار في التراب. أنا وجدكم تلاقينا هنا وتوحدنا ليس بالضّرورة جسداً بل روحاً. كلّ ما أشعر به أصبح يحسُّ به، والعكس تماماً صحيح. توحدنا كعناصر الحديقة فأصبحنا الكلمةَ وضدها بكل الحالات؛ حياةٌ ووحشة، نارٌ ونور، سعادةٌ وهناء، شقاء وتعاسة.

لقد قمنا بإحضار أباكم معنا دوما، وفي يومٍ من الأيام أتى وَحْدَهُ دون إخبارنا. قلقنا عليه ولم يخطر لنا أن نجده هنا. لكنه يومها كان مستكشفا صغيرا حيث وجد هناك في الزاوية الشمالية خلف الزهور المتفتحة والأشجار المورقة، زاوية

خفية تطل على حديقة القصر المجاور. استطاع العبور من البوابة الصغيرة المخفية وراء الحوائط من الأزهار الزاهية ودخل حديقة القصر. لو لم يره صاحب المكان لما عثرنا عليه حينها، ولكن يومها تأملت المكان الذي تعرفت عليه أول مرة على الرغْم كوني أعرف الحديقة عن ظهر قلب. كانت حديقةً سريةً، بعيدةً عن أعين الناس، ولكنها كانت تنبض بالحياة والجمال. حينما دخلتها لأحضر والدكم الذي كان يأبى الخروج شعرت بالدهشة والسعادة يغمراني باستكشافه هذا. كانت الزهور تتراقص مع نسمات الهواء، والأشجار ترتدي أزهارها كالتيجان الملكية. كانت كل تفاصيل المكان تبعث على الإلهام والدهشة، مما جعلني أتتساءل عن قصص وراء هذه الزوايا.

وهكذا، استمررت بزياراتي للحديقة معكم لحد اليوم يا أحفادي وأنا أحمل كل تلك الذكريات والمشاعر الجميلة التي أعطاني إياها هذا المكان. كبرت وأصبحت أدرك أنه بينما تتلاشى أشعة الشمس وتختفي الألوان، تظل الحديقة تشع بالجمال والأمل، تذكيرًا بأن الجمال والسعادة قد تجدهما في أصغر الأماكن وأبسطها مما يجعلني دومًا ممتنة للمكان.

بعدما كان المقعد الخشبي في الحديقة لي وحدي بعد وفاة أمي وجدتُ بعد ذلك اليوم من يشاركني الجلوس عليه بداية جدكم ثمّ والدكم واليوم أنتم. الحديقة جمعتنا فأمضينا معا هنا أجمل ذكرياتنا وأحلاها. في قلبي ينبعث عبق زهورٍ عذبة تظهر جمال اللقاء كما تعكس الأزهار حولنا أناقة الحديقة. تنسجم مشاعري مع همس الرياح ورقة أوراق الشجر المتطايرة من الأشجار الشاهقة بأغصانها الخضراء المتداخلة على طول الأراضي فتكاد تلامس بأطرافها اللامعة بحنان أشعة الشمس الدافئة.

الآن يا مستكشفين وقد أنهيت لكم حكاياتي هيا قوموا وتجولوا بين الممرات المتعرجة والمروج الخضراء، واستمتعوا بجمال الحديقة الطبيعية المحيطة بكم ففي كل زاوية جديدة يمكنكم أن تكتشفوا عالمًا مختلفًا من الألوان والروائح والأصوات. وبينما تغرب الشمس في الأفق، قرروا إن كنتم تودون أخذ هذا المكان مأوى لكم لتعودوا إليه ولتستعيدوا قوتكم ونشاطكم ويلتم شملكم.

هذه الحديقة كانت وما زالت تأخذني في رحلة ساحرة عبر عالم الخيال والجمال فلا أجلس هنا إلاّ يكون قد غمرني شعور السلام والراحة، كما لو كانت الحديقة تحتضنني بحنان. وَسَط هذا المنظر الساحر للحديقة دوما، ينبت عبق ذكرياتي يا أحفادي وداخل هذه الحديقة كونت حديقةً سرية تحمل في طياتها العديد من القصص والذكريات فأيامي هنا جعلتني أبني عَلاقة خاصة بالمكان حيث وجدت السلام والهدوء الذي أحتاجه على وتيرة الهواء النقي وأشعة الشمس الدافئة وبعيدا عن ضجيج العالم. وَسَط هذا المكان أحمل معي أمالي، وعلى شفا الفجر الجديد أؤمن بأن كل زهرة تتفتح في هذا العالم تحمل معها وعدًا ببداية جديدة وسعيدة...